أثر خطير

كنيس الصالحية

للأستاذ عز الدين التنوخي

كاتب سر المجمع العلمي العربي

دوىّ في دمشق تلهج به الألسنة ويردّده الهواء بين الأحياء، وصدى الدهر يُثير من النفوس روائع الدهشة، ويبعث فيها نوازع الاستطلاع، ويُعين على تمكين ذلك من النفس التاريخُ بابتعاده، والتخيل بامتداده، مئات من السنين، ومئات من الشعوب والقبائل والأجيال تمرُّ وتنطوي على كنيس الصالحية ما بين دير الزور وأبي كمال، وهو (منذ أُسس ببنيانه سنة ٢٤٤ ب. م) لايزال قائماً بفارع جدرانه، ومائلاً برائع ألوانه، يُعرب بلسان الزمن عما مرّ بالبشر من أيام هناء وبلاء، مخبراً عن أمم زالت، ودول دالت، وأحوال حالت، مما يمحص به أبناء العصر الحاضر حقائق الدهر الغابر، فينقلب به ماكان حقيقة وهماً، وماكان وهماً حقيقة

كنيس الصالحية، وماأدراك ماكنيس الصالحية، رأيت ألواحه الجبسية المقطوعة بالمنشار متفرقة، وهي أوصاله بل أشلاؤه الممزقة، فراعني — لعمر الحق — منظرها، وأكبرت بعد التأمل الطويل مخبرها، ثم تصورت هذا الكنيس الأثري النفيس، وقد التأمت بجوار السليمانية غداً أجزاؤه، والتحمت بعد طول الشتات والبلى أشلاؤه، فملك بتصوره القلب قبل الطرف، وألهج اللسان باستحسان مالا يحيط به الوصف البارع واللسان المبين: ذلك أن صور تلك الألواح لاينقصها لأتقانها إلا الأرواح المثيرة، والقوى المجيرة، فتنمزك بعيونها، وترمز اليك بشفاهها، وتحدثك بأفواهها عن جلية أحوالها، وأخبار رجالها ونسائها وأطفالها، ولو أنها استطاعت ذلك لأغنت المنقبين والمؤرخين عن كثير من التنقيب والاستقراء والانفاق المستمر الفادح، والعناء المتواصل المنهك

أجل، هذه الألواح لاينقصها إلا الأرواح، فان لكل منها جهارة رائعة، وشارة جميلة، الى وجه ساجٍ مسنون، وأنف أقنى، وعينين ناطقتين في صورة انسان سبط القوام، متناسب الأعضاء، تلمح عليه دلائل القوة والفتوة، وتلمع في عينيه شواهد النبل والفضل

في لوح مستطيل منها ترى صورة موسى النبيّ بيده الألواح وهو بوجهه المخروط الصبيح، يشبه السيد المسيح، تحيط به هالة قاتمة اللون من شعر رأسه الفاحم ولحيته السوداء، وكان لآلهة الاغريق لحيٌ تزيد في هيبة الوجوه ووقارها

وفي لوحٍ آخر تشاهد صورة السموءل وهوالنبيّ (صموئيل) يمسح بالزيت رأس النبي داود الواقف بين إخوته الستة قابضاً بيمناه يُسراه كما يقبض المصلّي إذا صلى

وفي لوح ثالث آخر صورة أحشويروش (الملك الأسد) ملك فارس وبابل وزوج إستير وقد استوى على عرشه المخمّس الدرجات، وعلى يساره الملكة إستير مُنقِذة إسرائيل، وهي على عرشها؛ وعلى جانب كل عرش صورة أسد أو نسر من ذهب، وعلى واجهة إحدى الدرجات قد نقش اسم الملك (أحشويروش) فاذا أراد الملك الصعود نحو عرشه وقف على الدرجة السفلى فترتفع به حتى تساوي الثانية التي فوقها، فينتقل إليها فترتفعُ به إلى الثالثة، والثالثة ترفعه إلى الرابعة، وهذه إلى الخامسة، فيستوي هنالك على عرشه العظيم، وبذلك يشبه هذا الدرج العجيب مصمدة (أسانسور) هذا العصر؛ ويقال إن هذا العرش هو عرش سليمان مسلوباً من بيت المقدس، إذ وجد فوقه لوح آخر يمثل سليمان الحكيم على عرش لا يختلف بشيء عن العرش البابلي مما يرجح القول بنقله إلى بابل، وعلى يسار هذا اللوح لوح آخر يمثل ابن عم الملكة إستير وهو مردخاي ممتطياً صهوة جواد أشهب مطهم يقوده هامان الوزير قصاصاً له وانتقاماً

وهنالك لوحٌ آخر مؤلف من سبع قطع، تمثل إلياس النبي مع أسباط إسرائيل، وهو يدعو الله أن يحيي له ثلاثة من الموتى فيبعث الله لانعاشهم أرواحاً ثلاثاً، والروح منها ممثلة بشكل امرأة تطير بجناحيها، وتهبط هذه الأرواح على أجسادها فتهبّ من رقادها، وعلى رأس أحدهم يد بمعصمها ترفع الميت المنتشر من وفرة رأسه

ومن تلك الألواح ما يمثل موسى عليه السلام طفلاً تخرجه من اليم ابنة فرعون وقد ذهبت مع جواريها تغتسل في النيل فوجدته عائماً في سفط يتقلقل بين أوراق البردي ، وإلى جانبها جاريتان تحمل إحداهما صندوقة صغيرة تشتمل من أدوات الطيب على مالا غنى للمغتسل عنها ، وهي عادة مصرية قديمة

كانت كنائس اليهود قبل عهد هذا الكنيس لا تستوعب أكثر من ٤٥ مصلياً ، ولكن قاعة هذا الكنيس المستطيلة تستوعب ضعف هذا العدد ، أي نحو مائة من المصلين ، فقد كانت أبعادها (١٣,٥ متراً طولاً في ٧,٥ عرضاً في ٧,٥ ارتفاعا)

ومما يدل على أبهة هذا الكنيس النفيس أن محرابه القائم في صدره قد كان يزهو بطنافس فارس الجميلة ، وتبصر على جانبه صورة شمعدان من الذهب ذي سبع شعب ، في كل شعبة منها شمعة تبدد بعض ظلام الكنيس ؟ وكانت مقاعد المصلين مُغَشَّاةً أيضاً بالطنافس كما استدل علماء الآثار على أن سماءه (سقفه) كانت مشيدة بالقرمد المزين المنقوش ، وكانت أرضه مفروشة أيضاً بنفائس الطنافس

هذا ولئن كانت الأمم تقاس برجالها ، والرجال توزن بأعمالها ، فقد حقّ علينا أن نختم هذه الكلمة بكلمة أخرى عادلة في شكر من كان سبباً لحفظ هذا الكنيس في بلادنا ولاعادة بنائه في دمشق غداً ، وهو صاحب المعالي وزير معارفنا الهمام السيد حسني البرازي ، فقد حاولت بعثة الحفر والتنقيب الأمريكية أن تستأثر به وتحرم من الانتفاع به تلك الأمة التي نُبِشَ من ترابها ، ليُنبئ عن عمرانها وأحوال أديانها وآدابها ، وكادت تفلح لولا جهادُه الميمون وحسن مساعيه لدى المفوضية التي حققت بأخرة أمنيتَه ، تخدم بذلك أجلّ خدمة بلاده وأمته : ذلك لأن هذا الكنيس المنقطع القرين لم تفتح العين على مثله بعد ، ولهذا يقدر بعض علماء الآثار ثمنه بأكثر من مليون جنيه ، ويعدونه استثناءً أثرياً لقواعد الكنائس اليهودية التي تحرم التصوير ، وما كانت صوره هذه المحرمة بعظيمة الخطورة لدارسي تاريخ الشريعة فحسب ، إذ هي لدارسي تاريخ الفن أعظم خطراً ، وأبلغ لعمري أثراً

دمشق — عز الدين التنوخي
كاتب سر المجمع العلمي العربي

١٦ ـ قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكي

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

صلة حديثه

وذهب « جرنيه » إلى الشمال يدرس دود القز في مدينة فالنسين Valenciennes ، فكتب اليه بستور أن يعيد إجراء التجربة الفائتة . سأله هذا ولمّ يدرِ لِمَ سأله ، وكان جرنيه قد حصل على مجموعة طيبة من الدود السليم ، وكان يعتقد على الرغم من تشكك أستاذه أن تلك الكريات التي في باطن الدود ليست سوى أحياء تتطفل عليه فتقتله . فأخذ أربعين دودة سليمة وغذّاها بأوراق من التوت لم يمسها أبداً دود مريض ، تفرج من هذه الأربعين سبع وعشرون دودة نسجت سبعاً وعشرين شرنقة . وخرج الفراش من الشرانق خلواً من الكريات ، فعندئذ عمد إلى فراشات مريضة فسحقها ولوّث بسحيقها أوراقاً من التوت ، وغذّى بهذه الأوراق دُوَيدات سليمة صغيرة ، عمرها يوم واحد ، فلم تلبث هذه الدُويدات أن مرضت وهزلت وماتت موتة بطيئة . وتغطّى جلدها بالبقع السوداء ، وامتلأ جسمها بكريات الداء . وبعد هذا لوّث أوراقاً أخرى بسحيق الفَراش المريض وغذّى بها دوداً سليماً تاماً بالغاً كان على وشك أن ينسج الشرانق . فهذا الدود عاش حتى أتم نسج توبه الحريري ، ولكنه لما استحال إلى فراش خرج هذا الفراش وبجسمه الكُريات اللعينة ، وباض فكان البيض فاسداً . فسرّ « جرنيه » وثار ، وزاد سروره وزادت ثورته في الليالي التي أكب فيها على مكرسكوبه كلما رأى هذه الكريات تزيد في الدود كلما زاد انضماراً وقارب الفناء

وأسرع « جرنيه » الى بستور يصرخ له : « حُلّت المسألة ! فهذه الكُريّات حيّة ! إنها طفيليّات ، وهي التي تُمرض الدود ! »

واستغرق بستور ستة أشهر ليقتنع بمقالة « جرنيه » . ولكنه